أسلمة التاريخ الإنساني

# المنهج القرآني لصياغة التاريخ

## المنطلقات والأسس والنتائج

السيد منذر الحكيم

الملف

### المدخل

لقد فتح لنا عصر الصحوة الإسلامية المباركة أبواباً جديدة لنطلّ من خلالها على تراثنا العلمي الإسلامي بشكل خاص، وعلى التراث العلمي البشري بشكل عام، ونعرض كلّاً منهما على مصادرنا المعرفية من جديد.

وبالرغم من أن الإسلام كان هو المؤسس لجملة من هذه الفروع العلمية والدليل المرشد والعامل المؤثر في تكامل بعضها الآخر، لكنها بدأت تتضخّم في جوانب وتضؤل وتُختزل في جوانب أخرى، مما أدّى إلى ابتعادها بالتدريج عن مسارها الطبيعي المرسوم لها من قبل القرآن الكريم باعتباره مصدراً معرفياً ربّانياً يهتمّ بالمعرفة البشرية ويقدم للإنسانية مناهج تحصيل المعرفة واستثمارها. ومن هنا نجد أنفسنا بحاجة ماسة إلى أن نقوم بإجراءين أساسيين:

**الأول**: أسلمة العلوم البشرية[1] بشكل عام.

**والثاني**: التطبيق الصحيح للمنهج القرآني الربّاني على العلوم الإسلامية بشكل خاص.

ويتوقف كل من الإجراءين على دراسات تمهيدية تخصصية ثم تطبيق نتائجها على كل واحد من هذه العلوم.

ويتضمن هذا المقال جانباً من هذين الإجراءين فيما يخص علم التاريخ بالذات قاصداً الإثارة الهادفة قبل كل شيء. ومن الله نستمد التوفيق لإكمال الشوط وهو خير معين.

### خطّة البحث

#### أولاً: الإسلام والتاريخ

ويتضمن هذا البحث:

١ ـ موقف القرآن الكريم من التاريخ بشكل عام من خلال استعراض وتصنيف جملة من نصوصه.

٢ ـ التاريخ من خلال نصوص الحديث الشريف.

٣ ـ مصدرية القرآن للمعرفة البشرية وما يمتاز به هذا المصدر المعرفي على ما سواه من المصادر في حقل التاريخ البشري بالذات.

٤ ـ منهج القرآن الكريم في التعامل مع التاريخ الإنساني وخصائص المنهج.

**ثانياً: تاريخ الإسلام**

أ ـ الإسلام. ب ـ تاريخه. ج ـ عصر الرسالة.

د ـ عصر الوصاية. هـ ـ مميزات عصر الرسالة.

و ـ عصر الوصاية ومرتكزاته.

## أولاً: الإسلام والتاريخ

### ١ ـ التاريخ في القرآن الكريم

ويتّضح موقف القرآن الكريم من التاريخ بشكل عام من خلال النصوص التالية:

أ ـ قال الله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سننٌ، فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين﴾[٢].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾[٣].

وقال: ﴿ألَمْ يروا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ مكنّاهم في الأرض ما لم نمكّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً... فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾[٤].

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[٥].

ب ـ ﴿تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها﴾[٦].

﴿كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق﴾[٧]. ﴿نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾[٨].

﴿وكُلّاً نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك، وجاءك في هذه الحقّ وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[٩].

﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب. ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء، وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾[١٠].

﴿لنجعلها لكم تذكرةً وتعيها أذُنٌ واعية﴾[١١].

ج ـ ﴿قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بُرآء منكم وممّا تعبُدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلّا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيءٍ ربّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربّنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا واغفر لنا ربّنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولّ فإن الله هو الغنيّ الحميد﴾[١٢]. ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[١٣].

### ٢ ـ التاريخ في الحديث الشريف

روى علي عن النبي الأكرم نصّاً صريحاً يرشد الإنسان إلى القرآن الكريم كمصدر تاريخي جدير بالدراسة وهو قوله صلى الله عليه وآله «... كتاب الله فيه بيان ما قبلكم... وخبر ما بعدكم»[١٤].

قال علي أمير المؤمنين في وصيّته المعروفة التي وجّهها لابنه الحسن بعد انصرافه من صفين:

«أحي قلبك بالموعظة... واعرض عليه أخبار الماضين، وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأوّلين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا وعمّا انتقلوا وأين حلّوا ونزلوا...»[١٥].

«أي بُني: إني وإن لم أكُن عُمّرتُ عمْرَ من كان قبلي، فقد نظرتُ في أعمالهم وفكّرْتُ في أخبارهم وسِرْت في آثارهم حتى عُدْت كأحدهم. بل كأنّي بما انتهى إليّ من أمورهم قد عُمّرت مع أوّلهم إلى آخرهم، فعرفتُ صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره»[١٦].

وعن الإمام الصادق عليه‌السلام: «إن العزيز الجبّار أنزل عليكم كتابه وهو الصادق البارّ، فيه خبركم، وخبر من قبلكم وخبر من بعدكم، وخبر السماء وخبر الأرض. ولو أتاكم من يخبركم عن ذلك لتعجبتم»[١٧].

## ٣ ـ القرآن مصدر معرفي وتاريخي

القرآن هُدى الله، الذي يهدي الإنسانية للتي هي أقوم، وفيه تبيان كل شيء، إذ فيه خبر السماء وخبر الأرض. وخبر ما يكون وخبر ما هو كائن، «وما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد إلّا بيّنه للناس»، كما نص الله سبحانه على ذلك قائلاً: ﴿ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء﴾[١٨]. وأوضحه الإمام السادس صادق أهل البيت عليهم‌السلام كما عرفت.

لقد عدّ القرآن الكريم «التاريخ» مصدراً من مصادر المعرفة للإنسان؛ ومن هنا حثَّ الإنسان على البحث والتحقيق في هذا المصدر المعرفي بقوله: ﴿فسيروا في الأرض﴾، وقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾. وقوله: ﴿لعلّهم يتفكّرون﴾.

ورتّب على ذلك اكتساب المعرفة، قائلاً: ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾. و ﴿أوَ لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الأرض﴾.

كما قال علي عليه‌السلام: «... وفكّرت في أخبارهم وسرت في آثارهم... فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره...».

والهدف من اكتساب المعرفة هو: اكتشاف الحقّ والاتّعاظ والاعتبار والتذكرة والوعي. قال تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ و ﴿عبرةٌ لأولي الألباب﴾.

### مميزات المعرفة التاريخية القرآنية

إنّ المعرفة التي يحصل عليها الإنسان من خلال التجربة البشريّة تختلف عنده قيمةً وإقناعاً عن المعرفة التي لم تصل إلى محكّ التجربة والتطبيق.

ومن هنا يترتب على هذه المعرفة الاطمئنان الذي عبّرت عنه الآية الكريمة بتثبيت الفؤاد. كما يترتب أيضاً على القيم المتجسّدة في سلوك الأنبياء ووجودهم إمكان التأسي والاقتداء بهم باعتبار تحوّلها إلى ميدان العمل والتجربة والتطبيق. وبهذا نفهم السرّ في جعل إبراهيم الخليل عليه‌السلام والذين معه أسوة لنا ولأتباع خاتم

المرسلين صلى الله عليه وآله، وللسبب نفسه يصبح الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وآله أسوةً حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.

إنّ الاتعاظ بحوادث التاريخ والاعتبار بها يتفرّع على إمكان تكرر حوادث التاريخ وتشابهها في الأسباب والنتائج. وهذا معناه وجود سنن وقوانين تتحكّم في التاريخ، يمكن اكتشافها والتعرّف عليها والاستفادة منها واستثمارها من أجل تغيير الأوضاع الفاسدة واتّقاء الشرور التي ترتبط باختيار الإنسان وسلوكه الإرادي، والتسامي في طريق الكمال اللائق بالإنسان.

لقد أكّد القرآن الكريم ضرورة استثمار التاريخ في حركة الإنسان نحو الكمال، وصرّح بوجود سنن وقوانين ثابتة تتحكّم في سلوك الإنسان وصُنع تاريخه، وأرشد القرآن الإنسان إلى وجود هذه السنن، وكشف له النقاب عنها بالإجمال تارةً وبالتفصيل تارة أخرى. كما بيّن أنواع هذه السنن وأوضح العلاقة فيما بينها بشكل معجز وبديع، وبهذا سبق القرآن العلماء والفلاسفة والمحققين في حقل «فلسفة التاريخ» ودان له المنصِفون منهم بفضل السبق وبفضل التأسيس والدقّة والتفصيل[١٩].

## ٤ ـ منهج القرآن الكريم في التعامل مع التاريخ البشري

وللقرآن منهج كامل وواضح في التعامل مع التاريخ الإنساني بشتى فروعه وجوانبه وهو جدير بالدراسة والتحقيق.

وأفصح القرآن الكريم عن أن العهد التاريخي للإنسانية قد بدأ بظاهرة وجود النبوّات في المجتمع البشري. هذه النبوّات التي تقود مجتمعاتها نحو حياة أفضل ووجود إنساني أكمل؛ مما يمكن أن نستنتج منه أنّ إشراق النبوّة وظهور الأنبياء في المجتمعات البشريّة يعتبر بداية العصر التاريخي للبشرية[٢٠].

قال تعالى: ﴿كان الناس أمةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[٢١].

لقد قضت حكمة الله ورحمته بإرسال الأنبياء حاملين إلى الإنسانية منهاج هدايتها الذي يخرجها من عهد الغريزة إلى عهد العقل، ومن منطق الصراع الذي مرجعه الغريزة والقوّة إلى منطق النظام ومرجعه القانون.. وخرج المجتمع البشري بالنبوّات عن كونه تكويناً حيوانياً ـ بيولوجيّاً ـ إلى كونه ظاهرة عقلية روحية وحققت النبوّات للإنسان مشروع وحدة أرقى من وحدته الدموية البيولوجية.. وهي الوحدة القائمة على أساس المعتقد، وبذلك تطوّرت العلاقات الإنسانية مرتفعة من علاقات المادة إلى علاقات المعاني. والاختلافات التي نشأت في النوع الإنساني بعد إشراق عهد النبوّات غدت اختلافات في المعنى، اختلافات في الدين والمعتقد. فإن أسباب الصراع لم تُلغ بالدين الذي

▣ للقرآن منهج كامل وواضح في التعامل مع التاريخ الإنساني بشتى فروعه وجوانبه وهو جدير بالدراسة والتحقيق.

▣ إن المنهج التاريخي للقرآن منهج علمي فريد لابدّ من التعرّف عليه والاستهداء به في التعامل مع التاريخ النقلي والتحليلي وفلسفة التاريخ.

▣ لقد أكّد القرآن الكريم ضرورة استثمار التاريخ في حركة الإنسان نحو الكمال، وصرّح بوجود سنن وقوانين ثابتة تتحكّم في سلوك الإنسان وصُنع تاريخه، وأرشد القرآن الإنسان إلى وجود هذه السنن.

جاءت به النبوّات بل استمرّت وتنوّعت، ولكن المرجع لم يعد الغريزة بل غدا القانون مرجعاً في هذا المضمار. والقانون الذي يتضمنه الدين يكون قاعدة ثابتة لوحدة الإنسانية وتعاونها وتكاملها[٢٢].

وأوضح الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الخطبة الأولى من نهج البلاغة ـ بعد أن استعرض تاريخ خلق العالم وتاريخ خلق الإنسان وإسكانه في الأرض ـ أن إشراق النبوّة وتسلسلها على مدى العصور هو المحور في تاريخ الإنسان وحركته نحو الكمال اقتداءً بالقرآن الكريم وإيضاحاً لمنهاجه في التعامل مع التاريخ.

قال عليه السلام: «واصطفى سبحانه أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم... فبعث فيهم رسُله وواترَ إليهم أنبياءه.. ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبيّ مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجّة قائمة، رسلٌ لا تقصّر بهم قلّة عددهم ولا كثرة المكذّبين لهم... على ذلك نسلت القرون ومضت الدهور.. إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عدته وإتمام نبوّته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورةً سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذٍ ملل متفرّقة وأهواء منتشرة.. فهداهم به من الضلالة.. ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقاءه.. فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها؛ إذ لم يتركوها بغير طريق واضح ولا علمٍ قائمٍ...».

## خصائص المنهج التاريخي القرآني

إنّ الهدف المعرفي والتربوي السامي الذي ابتغاه القرآن من الاهتمام بتاريخ الإنسان ـ بما فيه تاريخ الأنبياء وأممهم ـ هو الذي أملى على تعامله مع التاريخ منهجاً خاصّاً وفريداً يجدر الاقتداء به والاستلهام منه جملةً وتفصيلاً.

ونوجز أهمّ النقاط الأساسية لهذا المنهج فيما يلي:

أ ـ استيعاب حركة الإنسان بجميع مراحلها، بما فيها حركة الرسالة المحمدية الخاتمة.

ب ـ الاهتمام بالمفاصل الأساسية في حركة الإنسانية على مدى العصور.

ج ـ اعتبار خط الهداية الإلهية ـ المتمثّل في الأنبياء والأصفياء من أتباعهم ـ محوراً حقيقياً وموضوعياً لحركة التاريخ البشري، وتسليط الأضواء على سائر الجوانب من خلال هذا المحور الموضوعي المستمر والمستوعب لكل أوجه النشاط الإنساني.

د ـ الاهتمام بمواطن العبرة والفائدة الحقيقية والأساسية من حوادث التاريخ الفردي والاجتماعي.

هـ ـ الاهتمام بالتحليل العلمي والاستنتاج المنطقي؛ وتوظيف التجارب التاريخية لاكتشاف السنن العامّة بغية الاهتداء بها في مسيرة الحياة البشرية التكاملية، وإعطاء الباحث رؤية شمولية واقعية ليكون قادراً على التحليل والاستنتاج فيما يستجد له من حوادث ودراسات تاريخية.

## استخلاص واستنتاج

إذن:

أ ـ لابدّ من اعتماد القرآن الكريم كمصدر علمي غنيّ في دراسة تاريخ البشرية بشكل عام وتاريخ النبوّات والأنبياء بشكل خاص وتاريخ الرسالة الإسلامية المحمدية بشكل أخصّ.

ب ـ إن المنهج التاريخي للقرآن منهج علمي فريد لابدّ من التعرّف عليه والاستهداء به في التعامل مع التاريخ النقلي والتحليلي وفلسفة التاريخ[٢٣].

ج ـ إذا أردنا أن ندرس تاريخ الرسالة الإسلامية دراسة موضوعية ومنطقية فلابدّ أن نأخذ تاريخ النبوّات السابقة بنظر الاعتبار، وذلك:

١ ـ لوجود المعالم المشتركة فيما بينها جميعاً.

٢ ـ لأن الرسالة الإسلامية هي الامتداد الطبيعي لسائر الرسالات السابقة، ولا يمكن اقتطاع بعض الحلقات المترابطة لفهمها واستيعابها بشكل كامل مع إغفال جذورها ومقدّماتها.

د ـ إن المنهج التاريخي للقرآن الكريم يسعفُ الباحث المعاصر في تقويم الدراسات التاريخية القديمة والحديثة معاً، كما أنه يسلّط الأضواء الكاشفة على جميع المصادر التاريخية التي تناثرت بين كتب التفسير والحديث والسيرة والأنساب والرجال والتراجم والمغازي والمقاتل ومعاجم البلدان والقصص.

## ثانياً: تاريخ الإسلام

### أ ـ الإسلام

الإسلام رسالة إلهيّة تغييرية شاملة، وثورة على الجاهليّة بكل مفاهيمها وقيمها ومظاهرها وأبعادها وأشكالها.

قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه..﴾[٢٤].

وقال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[٢٥].

والإسلام هو دين الله للبشرية كافّة: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾[٢٦]. ومحتواه ومضمونه هو التسليم المطلق لله وحده، فهو تسليم القلب والشعور والإرادة لله وحده، والخضوع التام في العمل والسلوك له سبحانه. قال الله تعالى: ﴿ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[٢٧].

إن العمل بجميع قوانين الإسلام يمثّل العبوديّة التامّة لله وحده: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾[٢٨].

والعبادة المستمرة تنتهي بالإنسان إلى التسليم التام لله سبحانه من خلال التعبّد والتقوى والانضباط على قوانين الله وشريعته.

فللإسلام مصطلحان عام وخاص. والأول يشمل جميع الشرائع وهو القاسم المشترك لها. والثاني يختص بشريعة خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون﴾[٢٩].

### ب ـ تاريخ الإسلام

إذن تاريخ الإسلام هو تاريخ هذه الرسالة الإلهية التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية وبزغ نورها في رحابها وانتشر في ربوعها على يد خاتم النبيين وسيد المرسلين أبي القاسم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله بجهاده وكفاحه وجهود الصفوة من أتباعه الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه.. حتى استغلظ هذا النبت فاستوى على سوقه..

ويقف الصفوة من أهل بيته الطاهرين في مقدّمة هذا الخط الرسالي؛ إذ سهروا على صيانة الرسالة الإلهية الخاتمة من عبث العابثين وانتحال الضالين وكيد المبطِلين.

إن تاريخ الإسلام ـ كرسالة إلهية جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ـ قد يتداخل مع تاريخ الخلفاء، وتاريخ المسلمين، بمقدار ما له من امتداد وحضور عند الخلفاء وعند المسلمين، ولكنّه ليس هو تاريخ الخلفاء ولا تاريخ المسلمين. بل تاريخ الإسلام هو تاريخ خطّ الرسالة التي جاءت لهداية الناس أجمعين.

نعم نستطيع أن ندّعي أن القادة المعصومين الذين سهروا على حفظ هذا الخط الربّاني وصيانته من تسرّب التحريف له ودأبوا على تعميقه وتأصيله في المجتمع الإسلامي والإنساني هم الذين يمثلون هذا الخط الربّاني ويجسّدون حقائقه وقيمه، ويعبّرون عنها بسلوكهم الرسالي. فتاريخهم هو تاريخ هذا الخط وتاريخ هذا الخط هو تاريخهم بكل مراحله وملابساته، وهم محمد والصفوة من أهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

كما نصّت على ذلك آيات : التطهير والمباهلة والمودّة في القربى[٣٠] وآيتا الأمر بالتبليغ، وإكمال الدين وإتمام النعمة من سورة المائدة[٣١] فضلاً عن حديث الثقلين المتواتر[٣٢] وحديث السفينة[٣٣] والأمان[٣٤] وغيرها من النصوص النبوية التي ميّزت خط الدعوة والدعاة الحقيقيين عن خط السلطة والحكم باسم الدين[٣٥].

### ج ـ عصر الرسالة

### الخطوط العريضة والمقاطع الأساسية في تاريخ الرسالة الإسلامية :

لقد بدأ تاريخ الرسالة الإسلامية بالبعثة النبوية المباركة في السابع والعشرين من شهر رجب قبل الهجرة بثلاثة عشر عاماً. وأخذت الرسالة الخاتمة تشق طريقها وتخترق المجتمع البشري على يد الرسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله. وبقيادته الحكيمة وجهاده المتواصل حققت الرسالة نجاحاً باهراً تجسّد في تأسيس كيان سياسي إسلامي في أقصر فترة زمنية ممكنة في تاريخ الثورات التغييرية والدعوات الانقلابية. واستمرت الرسالة الإسلامية تتسع وتتعمق وتتجذّر في أعماق المجتمع البشري بالرغم من فداحة الاخطار التي كانت تواجهها كلّما ازدادت تألّقاً وسموّاً.

من هنا نستطيع أن نميّز عصر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عن العصر الذي تلاه، والذي ينبغي تسميته بعصر الوصاية أو عصر الأئمة المعصومين، باعتبار أن حركة الرسالة يمكن فهمها وتتبعها من خلال مواقف وحركة قادتها الذين أنيطت بهم مسؤولية حفظ الرسالة وصيانتها من الضياع والانحراف.

وينقسم عصر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى عهدين متميّزين :

( ١ ) العهد المكّي الذي يبتدئ بالبعثة المباركة وينتهي بالهجرة النبوية إلى المدينة المنوّرة ( يثرب ) في السنة الثالثة عشر بعد البعثة.

( ٢ ) العهد المدني والذي يبتدئ بدخول النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله المدينة في غرّة ربيع الأول وينتهي بوفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله في العشرة الأخيرة من صفر سنة ١١ هـ. وينقسم كل عهد منهما إلى عدّة مراحل، كما سيأتي تفصيل ذلك تباعاً.

### د ـ عصر الوصاية

وأمّا عصر الأئمة المعصومين فيمكن تقسيمه إلى ثلاثة عهود متميّزة هي : عهد الحضور بعد وفاة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وينتهي بوفاة الإمام الحسن العسكري أي ٢٦٠ هـ، فهو يستغرق قرنين ونصف قرن، بينما يبدأ عهد الغيبة بعد استشهاد الإمام الحسن العسكري، بغيبة الإمام محمد المهدي عجل‌الله‌تعالى‌فرجه وهو الثاني عشر من أئمة أهل البيت الصادقين عليهم‌السلام، وهو الذي أخبرنا النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وسائر الأئمة عليهم‌السلام عن غيبته. وهو العهد الذي لازلنا نعيشه ونتفيّأ ظلاله.

وأمّا عهد الظهور فهو الذي يلي الغيبة حيث تنقشع السحُب الداكنة عن شمس الهدى لتنير العالم الإنساني أجمع. وحيث إنه لم يأت بعد، فلا يدخل في مقولة التاريخ، بل يعدّ من الملاحم والتنبؤات النبوية والقرآنية التي تكتمل بها

مراحل وعهود حياة القادة المعصومين كما تكتمل بها الحضارة الإسلامية.

إذن تنقسم الحركة الرسالية للإسلام إلى عصرين وخمسة عهود كما يلي:

١ ـ عصر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله (٢٣ سنة).

١ ـ العهد المكّي (١٣ سنة) وهو (عهد النبوة والثورة).

٢ ـ العهد المدني (١٠ سنوات) وهو (عهد تأسيس الدولة المباركة).

٢ ـ عصر الأئمة الراشدين عليهم‌السلام وهو (عصر الوصاية على الثورة والدولة). وله ثلاثة عهود:

١ ـ عهد الحضور (٢٥٠ سنة).

٢ ـ عهد الغيبة.

٣ ـ عهد الظهور.

## هـ ـ مراحل ومميزات العصر النبوي

أمّا عصر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فهو عصر الثورة الإسلامية المباركة بقيادة خاتم المرسلين صلى‌الله‌عليه‌وآله. وتميّز العهد المكّي منه بما أفرزه من إيجاد تيّار ثوري كان يتبنّى الإسلام عقيدة ونظاماً للحياة، فهو عهد تكوين الأمّة المسلمة أو عهد إنشاء الجماعة المؤمنة بالإسلام عقيدةً ونظاماً للحياة، بالرغم من أنها كانت تعيش في مجتمع ونظام جاهليين. وينقسم هذا العهد إلى ثلاثة أدوار على الأقل:

١ ـ دور الخفاء وإعداد البنية الأولى، وقد استمر هذا الدور من ثلاث إلى خمس سنوات حسب اختلاف الأقوال.

٢ ـ دور الإعلان وبداية الصراع (ويبدأ من السنة الرابعة أو الخامسة حتى السابعة للبعثة).

٣ ـ دور الهجرة والامتداد (ويبدأ من السنة السابعة حتى الثالثة عشر) وهو الذي استوعب ثلاث هجرات متتابعة هي: الهجرة إلى الحبشة فالطائف فيثرب.

وأمّا العهد المدني من العصر النبوي فهو عهد إنشاء الدولة الإسلامية الأولى، وتأسيس أوّل كيان سياسي دولي إسلامي يتبنّى تطبيق النظام الإسلامي بدل النظام السياسي والاجتماعي الجاهليين.

وينقسم هذا العهد إلى دورين متميزين:

١ ـ دور التأسيس والدفاع (من بداية الهجرة حتى انتصار المسلمين في غزوة الأحزاب).

٢ ـ دور الفتح والامتداد (من صلح الحديبية حتى عام الوفود).

## و ـ مرتكزات عصر الوصاية

وأمّا عصر الأئمة المهديين عليهم‌السلام وأوصياء خاتم المرسلين صلى‌الله‌عليه‌وآله. فهو عصر الوصاية العقائدية على الثورة والدولة النبوية الفتية، باعتبار أن حركة التغيير الشاملة للمجتمع الجاهلي وأعرافه وأنظمته ومفاهيمه لم يكن الطريق أمامها قصيراً بل كان طريقاً ممتدّاً بامتداد الفواصل المعنوية الضخمة بين الجاهلية والإسلام. فكان على الدعوة النبوية أن تبدأ بإنسان الجاهلية فتنشئه إنشاءً جديداً لتجعل منه إنساناً إسلامياً يحمل النور الجديد إلى العالم بعد أن تجتثّ منه كل جذور الجاهلية ورواسبها.

والأمّة الإسلامية ككل لم تكن قد عاشت في

ظلّ عمليّة التغيير هذه إلّا عقداً واحداً من الزمن على أكبر تقدير.

وهذا الزمن القصير لا يكفي ـ عادةً ـ في منطق الرسالات العقائدية والدعوات التغييرية لارتفاع الجيل الذي عاش في كنف الدعوة عشر سنوات فقط[٣٦] إلى درجة من الوعي والموضوعية والتحرّر من رواسب الماضي، والاستيعاب لمعطيات الدعوة الجديدة بحيث تؤهّله للقيمومة على الرسالة، ومواصلة عملية التغيير بدون قائد، بل يفرض هذا المنطق أن تمرّ الأمّة بوصاية عقائدية فترةً أطول من الزمن تهيئها للارتفاع إلى مستوى تلك القيمومة.

وهذا ما برهنت عليه الأحداث عقيب وفاة الرسول القائد صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث تولّى جيل المهاجرين والأنصار إمامة الدعوة والقيمومة المباشرة عليها ـ مع عزل القيادة الحقيقية التي عيّنها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله المتمثّلة في علي بن أبي طالب عليه‌السلام عن ممارسة دورها القيادي السياسي كما ينبغي ـ فلم يمض ربع قرن على عمر الخلافة حتى بدأت التجربة النبوية تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجّهها أعداء الإسلام القدامى (بقيادة آل أبي سفيان ومن لفّ لفّهم..) ولكن من داخل التجربة لا من خارجها، إذ استطاعوا أن يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج واستغلوا القيادة غير الواعية ثم صادروا بكل وقاحة وعنف تلك القيادة وأجبروا الأمّة على التنازل عن شخصيتها، وتحوّلت الزعامة بسرعة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويبعثر الأموال ويعطّل الحدود ويجمّد الأحكام الإلهية ويتلاعب بمقدرات الأمّة وأصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية»[٣٧].

إذن منطق العمل التغييري على مسار التاريخ كان يفرض على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أن يختار بأمر من الله سبحانه شخصاً يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة ويؤهله انصهاره الروحي والإيماني بشكل كامل بالرسالة.. إلى أن يعدّ إعداداً رسالياً وقيادياً خاصّاً بحيث تتوفر لديه الإحاطة التامة بالرسالة ومفاهيمها وأهدافها وجميع ما تتطلبه هذه الرسالة التغييرية من مواصفات من أجل إرساء قواعدها وأصولها في أعماق المجتمع الجاهلي الذي بدأ يعيش الإسلام منذ عهد قريب. وكل هذا الإعداد إنما هو من أجل أن تتمثل فيه المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة وليواصل بعد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ وبمساندة القاعدة الواعية ـ قيادة الأمّة وبناءها عقائدياً لتكون أمته الأمّة الشاهدة على سائر الأمم. وهذا هو الذي يعطي للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ضمان السلامة لمستقبل الدعوة ويصونها من الانحراف والانهيار.

لقد كان هذا الشخص الذي أعده الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لهذه المهمة الكبرى هو شخص علي بن أبي طالب عليه‌السلام دون غيره من الصحابة حيث لم يتوفر لغير علي عليه‌السلام ما توفر لعلي عليه‌السلام من فرص التفاعل مع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والرسالة والاندماج بخطّها اندماجاً تامّاً حتى قال عنه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «على مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار إلى

يوم القيامة»[٣٨].

وقد كان الإمام علي عليه‌السلام هو المرجع الأعلى لحلّ أيّ مشكلة كان يستعصي حلّها على القيادة الحاكمة وقتئذٍ، ولا نعرف في تاريخ التجربة الإسلامية وعلى عهد الخلفاء واقعة واحدة كان قد رجع فيها الإمام علي عليه‌السلام إلى غيره لكي يعرف منه رأي الإسلام وطريقة علاجه للموقف.

وإذا كانت الشواهد على إعداد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله للإمام علي عليه‌السلام لمواصلة قيادة الدعوة من بعده كثيرة، فالشواهد على إعلان الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عن تخطيطه هذا وإسناده زعامة الدعوة فكرياً وسياسياً بشكل رسمي إلى الإمام علي عليه‌السلام لا تقلّ عنها كثرةً، كما نلاحظ ذلك في أحاديث الدار والثقلين والمنزلة والغدير وعشرات النصوص النبوية الأخرى.

وهكذا فرضت ظروف الرسالة الإسلامية على قائدها الأوّل أن يعدّ للتجربة قائدها الثاني لتواصل على يده ويد خلفائه الحقيقيين نموّها الثوري وتقترب من اكتمال هدفها التغييري في اجتثاث كل رواسب الماضي الجاهلي وبناء أمة جديدة على مستوى متطلبات الرسالة الإلهية الخالدة ومسؤولياتها.

نعم هذا ما كان ينبغي أن يكون. ولكن هل استطاع القائد الثاني أن يتسلّم زمام التجربة ويقود الأمة سياسياً وفكرياً كما قُدر له وأريد منه؟ ولماذا؟ وهل كان يقدّر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عدم خضوع بعض الصحابة وقطاعات من الأمّة للتخطيط الربّاني؟ وإذا كان يقدّر ذلك فهل قدّم أطروحة أخرى تتماشى مع الواقع الموضوعي بحيث يحافظ على أهداف الرسالة ومتطلباتها ويصونها من الضياع والانهيار؟

**الجواب:**

١ ـ عرفنا أنّ الرسالة الإلهية الخالدة المتمثلة في الدين الإسلامي الذي جاء به محمد بن عبدالله صلى‌الله‌عليه‌وآله كانت تتطلّب وجود قيادة إلهية معصومة على مدى العصور لتقوم بمهمة صيانة الرسالة الإلهية من أشكال التحريف والضياع، ولتُقَدّم الحلول اللازمة للمشاكل المستجدة في حياة الأمّة، ولتقوم بتربية الأجيال البشرية المتتالية على خط الهداية باستمرار، ولتصون الأمّة المسلمة من الضياع والذوبان في التيارات الوافدة، ولتكافح أنواع الانحراف الفكري والعقائدي والأخلاقي والعملي، ولتحافظ على الكيان السياسي الذي أسسه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بعد جهاد كبير وكفاح طويل قدّمه الأنبياء على مدى العصور..

٢ ـ إن سيد المرسلين صلى‌الله‌عليه‌وآله قد قام بإعدادٍ رسالي خاص وبأمر من الله سبحانه لعلي بن أبي طالب عليه‌السلام الذي اختاره الله لهذه المهمة الكبرى ـ بحسب ما كان يتمتع به من مواصفات قيادية تجعله جديراً بهذا المنصب والموقع القيادي الربّاني ـ وقد عيّن الرسول أيضاً بأمر من الله تعالى النخبة القيادية من أهل بيته الميامين ونصّ على عددهم ونسبهم وأسمائهم، وأعلن ذلك على مرأى من الناس ومسمع وتناقلته

الصحابة بما تتم به الحجة على الأمّة والأجيال اللاحقة...

٣ ـ ولكن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله المرتبط بعالم الغيب[٣٩]. والذي كان ينظر بنور الله[٤٠] وهو القائد المحنّك، بل هو أبصر وأذكى قائد رسالي عرفه التاريخ لم يكن لتخفى عليه الأخطار التي كانت تحدّق برسالته، وأمّته، ودولته، والقيادة التي اختارها وعيّنها بأمر الله تعالى[٤١]...

لقد كان صلى الله عليه وآله على علم كامل بالتناقضات التي كان ينطوي عليها صحابته والمسلمون الذين سوف يتركهم من بعده بما فيهم المنافقون الذين فضحهم القرآن الكريم للأمّة المسلمة وكانوا في تصاعد مستمر كلما كانت تتّسع رقعة الإسلام المحمدي.. حتى أفصح الوحي عن المخاطر التي كان يتوقّعها الرسول صلى الله عليه وآله في العام الأخير من حياته والتي كانت تقف حاجزاً أمام التصريح بجملة من الحقائق التي ترتبط بمستقبل القيادة الإسلامية... وذلك بقوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾[٤٢].

إذن كانت هناك مخاطر قد تولى الله عصمة الرسول منها.

٤ ـ وقد كشف الرسول صلى الله عليه وآله عن بعض هذه المخاطر لأهل بيته الطاهرين ولصحابته المقربين قائلاً ـ وهو يخاطب ابنته فاطمة في الساعات الأخيرة من حياته ـ: «والذي بعثني بالحق لأقومنّ بخصومة أعدائك وليندمنّ قوم

**▣ وهذا الزمن القصير لا يكفي ـ عادةً ـ في منطق الرسالات العقائدية والدعوات التغييرية لارتفاع الجيل الذي عاش في كنف الدعوة عشر سنوات فقط إلى درجة من الوعي والموضوعية والتحرّر من رواسب الماضي، والاستيعاب لمعطيات الدعوة الجديدة بحيث تؤهّله للقيمومة على الرسالة، ومواصلة عملية التغيير بدون قائد، بل يفرض هذا المنطق أن تمرّ الأمّة بوصاية عقائدية فترةً أطول من الزمن تهيئها للارتفاع إلى مستوى تلك القيمومة.**

**▣ وقد كان الإمام علي عليه السلام هو المرجع الأعلى لحلّ أيّ مشكلة كان يستعصي حلّها على القيادة الحاكمة وقتئذٍ، ولا نعرف في تاريخ التجربة الإسلامية وعلى عهد الخلفاء واقعة واحدة كان قد رجع فيها الإمام علي عليه السلام إلى غيره لكي يعرف منه رأي الإسلام وطريقة علاجه للموقف.**

أخذوا حقك وقطعوا مودّتك وكذبوا عليّ، وليختلجنّ دوني فأقول: أمتي! أمتي! فيقال: إنهم بدّلوا بعدك وصاروا إلى السعير»[٤٣].

وقال لصحابته أيضاً مخبراً عن ارتداد بعضهم وتفرّقهم واختلافهم: «افترقت أمة موسى إحدى وسبعين فرقة. فرقة ناجية والباقون في النار، وافترقت أمة عيسى اثنتين وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقون في النار، وستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة. فرقة ناجية والباقون في النار»[٤٤].

وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ستحرصون على الإمارة ثم تكون عليكم حسرةً وندامة فنعمت المرضِعة وبئست الفاطمة»[٤٥].

٥ ـ ولا ننسى أن الرسول القائد وهو المربّي الحاذق يستطيع أن يقدّر كل مضاعفات خلوّ الساحة من القائد الرسالي الكفوء والإمام العالم العادل الصالح، أو مضاعفات انعزاله عن الساحة السياسية والفكرية، على الرسالة وعلى الأمّة وعلى الدولة جميعاً[٤٦].

فإذا كان يقدّر التراجع والنكوص والارتداد والاختلاف بعده، ويلاحظ عدم استسلام المنافقين لقيادة علي بن أبي طالب؛ ويشهد لذلك أنهم كانوا يعرفون في حياة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ببغضهم علياً بن أبي طالب عليه‌السلام.. بل يرى قوة تيارهم في حياته وتربصهم الدوائر لشخصه المبارك الذي كانت تحفّ به نفوس المؤمنين وتهابه جموع المسلمين.. فكيف بعلي بن أبي طالب الذي وتر قريشاً والعرب، ويتقدم عليه شيوخ الصحابة في العمر.. ويحول دون الخضوع لإمرته كبرياء النفوس التي تنتسب بالصحبة والقرابة السببية لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله.. فالمؤشرات كلها تشير إلى أن حدثاً متوقعاً سيقع ليحول دون تنفيذ التخطيط الإلهي للأمّة بعد الرسول الكريم صلى‌الله‌عليه‌وآله..

٦ ـ ومن الواضح جدّاً أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يحرص أشدّ الحرص على حماية مستقبل «رسالته وأمته ودولته» وهو يرى دنوّ أجله، الذي أفصح عنه في حجته الأخيرة قائلاً: «يوشك أن أدعى فأجيب، أو كأني قد دعيت فأجبت.. وإنّي تركت فيكم الثقلين..»[٤٧].

ويكفي لإثبات مدى حرصه صلوات‌الله‌عليه على مستقبل «الرسالة والأمة والدولة»، ومدى إخلاصه لدعوته وعمق تفانيه فيها وتضحيته من أجلها إلى آخر لحظة من حياته ـ وكل تاريخه يبرهن على ذلك ـ هو أنه كان على فراش الموت وقد ثقل مرضه وهو يحمل همّ معركةٍ قد خطط لها وجهّز جيش أسامة لخوضها فكان يقول: «جهّزوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة أرسلوا بعث أسامة» يكرر ذلك ويغمى عليه بين الحين والحين[٤٨].

وقد أجمعت أيضاً صحاح المسلمين جميعاً على أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لمّا حضرته الوفاة وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله «ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»[٤٩].

إنّ هذه المحاولة من القائد الكريم ـ المتفق على نقلها وصحّتها ـ تدلّ بوضوح على أنّه كان يفكر في أخطار المستقبل وكان يدرك بعمق

ضرورة التخطيط لتحصين الأمة من الانحراف وحماية دعوته من التميّع والانهيار[٥٠].

٧ ـ إذن لابدّ أن يكون هناك تخطيطان: تخطيط رسمي تتم به الحجة على الأمة وهو يتضمّن الحالة الطبيعية المطلوبة للأمة والدولة والرسالة أعني تولّي القيادة الصالحة ذلك بأمر من الله ونصّ منه صلى الله عليه وآله لأمور المسلمين، فتكون قيادته امتداداً لقيادة الرسول صلى الله عليه وآله التي تميّزت بالإخلاص التام والتفاني المطلق والعلم الكامل والعصمة اللازمة والحرص الشديد والحنكة التامة والشجاعة الفائقة.. كي تستكمل كل الشروط الضرورية للتربية المطلوبة للأمّة ولتستمر الرسالة في عطائها وبذلها وتفجيرها للطاقات الإنسانية الكامنة في وجودها واستثمارها من أجل البلوغ بها إلى أهداف الإسلام الكبرى.

وحيث تقدّر القيادة النبوية الكريمة عدم تنفيذ هذا التخطيط الصحيح وذلك لوجود عوامل تعيق تطبيقه جملةً وتفصيلاً.. فلابدّ من تخطيط آخر بديل له لخصوص حالة الطوارئ؛ ليقوم بتحقيق الأغراض الرسالية المطلوبة ولو على المدى البعيد، وإن كان ذلك يستلزم القيام بعمليات خاصّة ومعقّدة، وذلك تفادياً لمضاعفات المواقف المرتجلة أو المدروسة الخاطئة من الأمّة غير الواعية أو القطاعات المتسترة بالإسلام وهي تبغي الكيد للإسلام والمسلمين.

٨ ـ وإذا عرفنا مجموعة الأهداف التي كان ينبغي للقيادة المعصومة بعد الرسول صلى الله عليه وآله أن تحرص على تحقيقها وفقاً للظروف الواقعية والأسباب الطبيعية التي يدخل فيها عامل استجابة الأمة للتخطيط الإلهي النبوي على أساس مقدار وعيها وإدراكها للحقائق وإرادتها وحسن اختيارها أو سوء اختيارها، استطعنا أن نقدّر أن تخطيطاً مرحلياً وذا مرونة بحيث يتناسب مع الظروف المستجدة ـ بما فيها إقبال الأمة وإدبارها عن الحق أو ترددها وشكّها في مصاديق الحق والباطل ـ لابدّ من اتخاذه كي يضمن تحقيق الأهداف الكبرى وينسجم مع الواقع الموضوعي من دون أن يمسّ الرسالة وأهدافها بشكل من الأشكال.

٩ ـ ومن هنا كان للأئمة المعصومين الاثني عشر صلوات الله عليهم دور عام مشترك فيما بينهم جميعاً، وأدوار خاصّة لكل منهم أو لكل مجموعة منهم يقدّرها الإمام حسب الظروف التي تحيط به وبالساحة الإسلامية مع أخذ مجموعة الأهداف الرسالية ومدى الاقتراب منها بنظر الاعتبار.

إنّ التراث الذي تركه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله للإنسانية جميعاً عبر بعثته المباركة وثورته العملاقة وجهاده الدائب يتلخّص في مجموعة من الثمار التي ينبغي للقيادة النائبة أن تحافظ عليها وتعمل على صيانتها وإثرائها وتكاملها حتى بلوغ الأهداف الكبرى ويكون الدين كله لله، وترفرف راية «لا إله إلّا الله محمد رسول الله» على ربوع الأرض بقيادة أهل بيته المعصومين النجباء.

وهذه الثمار هي:

(١) رسالة إلهية شاملة يتوقف خلودها على صيانتها من عوامل الانحراف والضياع.

(٢) أمة مسلمة تؤمن بالإسلام رسالة ربّانية وهدية إلهية تحمل النور إلى العالم الإنساني.

وهذه الأمة كانت تملك طاقة حرارية هائلة إلى جانب وعي محدود جداً بعمق الرسالة ومستلزماتها وشؤونها[٥١].

(٣) ودولة إسلامية ذات كيان سياسي دولي ونظام اجتماعي إسلامي فريد يمكن تنفيذ قيم الإسلام من خلاله وإيصال صوته إلى العالم أجمع.

(٤) قيادة معصومة وكفوءة تخلف النبي المعصوم صلى‌الله‌عليه‌وآله وتحقّق أهدافه حينما تحيط بها أمة واعية وقاعدة مؤمنة بإمامتها وعصمتها كما كانت تؤمن بجدارة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وعصمته وكفاءته.

١٠ ـ وحين تعزل القيادة المعصومة عن الساحة السياسية وتبدأ الأمة بتناسي هذه القيادة وتصادر مرجعيتها الفكرية بعد مصادرة مرجعيتها السياسية، تصبح عنصراً عادياً كسائر الصحابة وتكون قيمتها بمقدار ما يحصل عليه الصحابة من قيمة لدى المسلمين وهم يرون الاختلافات الحادة والتناقضات الشديدة التي يعيشها الصحابة... وهكذا ينسحب ضياع القيادة المعصومة على الأمة فتبدأ بالضعف والانهيار والضياع وتنعكس أيضاً على الدولة الفتية فتأخذ بالذوبان والاضمحلال. وينعكس كل ذلك على الرسالة نفسها فتفقد عناصر قوتها وخلودها بالتدريج.

ومن هنا واجه الأئمة بعد عزلهم عن الساحة السياسية مضاعفات كبيرة تكاد تحطّم الرسالة والأمة والدولة الإسلامية جميعاً على مدى قريب أو بعيد. وهذا يتطلّب مواقف حازمة لمعالجة الواقع الموجود بجميع تناقضاته وملابساته مع أخذ الطاقات الكامنة التي يمكن تفجيرها بشكل تدريجي بنظر الاعتبار.

١١ ـ ويشكّل «صيانة الرسالة» الهدف الأول و «صيانة الأمة» الهدف الثاني و «صيانة الدولة» الهدف الثالث و «تولّي القيادة المعصومة لزمام الأمر» هدفاً رابعاً.

فإذا عزلت القيادة المعصومة احتاجت الأمة إلى الوعي الكافي لفهم واقع القيادة المعصومة وحقانيتها وضرورة الانصياع لها؛ فإن القيادة إنما تستطيع أن تعمل بشكل مثمر إذا كانت القاعدة مؤمنة بها وبأهدافها وخططها.. وحيث إن عامة القاعدة الشعبية كانت تفتقد الوعي الرسالي المطلوب، وإنما كانت تحمل الطاقة الحرارية التي سرعان ما بدأت تزول بغياب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كان الواقع الخارجي يحمل درجات من التعقيد لا محالة. ومن هنا نرى أن القيادة المتمثلة في أئمة أهل البيت عليهم‌السلام كانت تؤمن بأنّ «تسلّم السلطة وحده» لا يكفي ولا يمكّن من تحقيق عملية التغيير إسلامياً ما لم تكن هذه السلطة مدعومة بقواعد شعبية تعي أهداف تلك السلطة وتؤمن بنظريتها في الحكم، وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير وتصمد في وجه الأعاصير[٥٢].

وقد حاولت هذه القيادة باستمرار أن تستعيد الحكم وزمام الأمر بالطرق التي تؤمن بها[٥٣] لأنها كانت تؤمن بوجود قاعدة شعبية واعية ـ أو في طريق التوعية ـ من المهاجرين والأنصار

والتابعين لهم بإحسان، ولكن بعد نصف قرن وبعد أن لم يبق من هذه القاعدة الشعبية شيء يذكر ونشأت أجيال مائعة في ظل الانحراف، لم يعد تسلّم الحركة الشيعية للسلطة محقّقاً للهدف الكبير لعدم وجود القواعد الشعبيّة المساندة بوعيها وتضحياتها، وأمام هذا الواقع كان لابدّ للقيادة النائبة المتمثلة في الأئمة المعصومين من عملين أساسيين:

أحدهما: العمل من أجل بناء القواعد الشعبية الواعية التي تهيئ أرضية صالحة لتسلم السلطة، وهذا العمل هو الذي مارسه الأئمة بأنفسهم وقاموا به جميعاً ويعدّ دوراً مشتركاً لهم.

وثانيهما: تحريك ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها والاحتفاظ للضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجةٍ من الحياة والصلابة تحصّن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكّام المنحرفين.

وهذا العمل يعدّ دوراً خاصاً لبعض الأئمة وقد مارسه ثائرون علويّون أيضاً بتوجيه ودعم من الأئمة عليهم السلام جميعاً، إذ كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية. وكان الأئمة عليهم السلام يسندون المخلصين منهم[٥٤].

## تلخيص وتعقيب

١ ـ يتلخص تراث الرسول صلى الله عليه وآله الذي ينبغي للأئمة أن يحرصوا على حفظه وصيانته في تقديم:

أ ـ رسالة إسلامية إلهية كاملة. ب ـ أمة مسلمة. ج ـ دولة إسلامية. د ـ قيادة معصومة مستمرة على مدى القرون.

٢ ـ تعتبر الإمامة المعصومة رأس الهرم في النظام الإسلامي بحيث إذا انحسر هذا الرأس، انفصم نظام الأمة وتبعثرت وتناحرت واختلفت اختلافاً ينتهي بها إلى الضياع والدمار، وينسحب هذا الانحسار السياسي إلى جميع الجوانب إذ ينتهي إلى الانحسار الفكري وبالتالي ضياع الرسالة والأمة والدولة جميعاً ولو على المدى البعيد.

٣ ـ يتلخص عمل الأئمة تجاه الوضع المنحرف الذي تحقق بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله في عملين رئيسيين وتتفرّع عليهما سائر الأعمال. وهما:

أ ـ بناء قواعد شعبية واعية لإعداد الأرضية الاجتماعية اللازمة لاستلام زمام الحكم. وتتفرّع على هذه النقطة أمور سوف نعرض لها في بحث لاحق.

ب ـ العمل على الاحتفاظ بالروح الثورية لتحصين الأمة أمام إغراءات الجهاز الحاكم وعدم التميع أو الانصهار في الوضع الفاسد القائم.

وهذان العملان، عملان أساسيان لإنقاذ المجتمع من النهاية المحتومة له لولا التصدي لها والوقوف أمامها. وعلى أساسهما وعلى أساس ما تمليه الظروف الموضوعية تتعين الخطوات الخاصة بكل عصر وكل مرحلة.

## الهوامش

١. مصطلح أسلمة المعرفة يحتاج إلى بحث في جوانب شتى، ولا يسع مجال هذا المقال للتعرض لها وإيفاءها حقّها.
٢. سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.
٣. سورة غافر، الآية: ٢١.
٤. سورة الأنعام، الآية: ٦.
٥. سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
٦. سورة الأعراف، الآية: ١٠١.
٧. سورة طه، الآية: ٩٩.
٨. سورة يوسف، الآية: ٣.
٩. سورة هود، الآية: ١٢٠.
١٠. سورة يوسف، الآية: ١١١.
١١. سورة الحاقة، الآية: ١٢.
١٢. سورة الممتحنة، الآية ٤ ـ ٦.
١٣. سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
١٤. الحياة ٣: ١٣٩ عن العياشي ١ / ٣.
١٥. الحياة ٢: ١٢٩، عن العياشي ١ / ٣.
١٦. الكتاب رقم ٣١ من نهج البلاغة، طبعة صبحي الصالح.
١٧. الحياة ٢: ١٢٩، عن الكافي ٢ / ٥٩٩.
١٨. سورة يوسف، الآية: ١١١.
١٩. راجع محاضرات السيد الشهيد محمدباقر الصدر حول التفسير الموضوعي وسنن التاريخ.
٢٠. حركة التاريخ عند الإمام علي عليه‌السلام: ص ٧١.
٢١. سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
٢٢. حركة التاريخ عند الإمام علي عليه‌السلام: ٧٢ ـ ٧٣.
٢٣. يهتم علم التاريخ النقلي بـ:
١ ـ نقل الحوادث التاريخية.
٢ ـ والتثبّت من تحققها.
٣ ـ والتعرّف على كيفية تحققها.

ويهتمّ علم «التاريخ التحليلي» بتحليل الحوادث التاريخية من خلال:
١ ـ التعرّف على عللها وأسبابها.
٢ ـ والتعرّف على مايعاصرها من حوادث ترتبط بها.
٣ ـ واكتشاف نتائجها وآثارها.
ويهتم علم «فلسفة التاريخ» بالسنن التي تحكم تاريخ الإنسان ومراحل التاريخ البشري وعلل التطور لحركة التاريخ والمستقبل الذي ينتظر الإنسانية في نهاية الطريق.
وتترابط هذه الحقول المختلفة والفروع الثلاثة لعلم التاريخ. وقد قدّم القرآن الكريم منهجه العلمي لجميعها. وعلى الباحث أن يطلبها من القرآن مباشرة أو من المصادر التي اختصت بالدراسات التاريخية القرآنية.
٢٤. سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
٢٥. سورة المائدة، الآية: ٣.
٢٦. سورة آل عمران، الآية: ١٩.
٢٧. سورة لقمان، الآية: ٢٢.
٢٨. سورة الفاتحة، الآية ٥.
٢٩. سورة آل عمران، الآية ١٠٢.
٣٠. سورة الأحزاب، الآية: ٣٣، وسورة آل عمران، الآية: ٦١، سورة الشورى، الآية: ٢٣.
٣١. سورة المائدة، الآية: ٦٧، والآية: ٣.
٣٢. راجع رسالة «حديث الثقلين» للشيخ قوام الدين الوشنوي.
٣٣. فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ٢: ٦٤، نشر مجمع التقريب في مصر.
٣٤. فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ٢: ٦٨، نشر مجمع التقريب في مصر.
٣٥. ذخائر العقبى: ١٧، ويدلّ عليه حديث السفينة ←

←الذي جعل النجاة في اتّباع آل محمد، والغرق في اتّباع غيرهم.

٣٦. ولنفترض أن البعض قد عاش عقدين من الزمن مع النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ولكن الوضع الفكري والروحي الجاهلي المسبق لهم من جهة وما زخرت به الفترة المدنية من ألوان الصراع السياسي والعسكري على جبهات متعدّدة وما واجهته الجماعة المسلمة نتيجة احتكاكها بأهل الكتاب وسائر مصادر القلق والإثارة المستمرة، بالإضافة إلى القطاعات الكبيرة من الأمّة التي تمثّلت بمسلمة الفتح ولم يتسنّ للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله التفاعل معهم في الفترة القصيرة التي أعقبت الفتح، بالإضافة إلى المؤلفة قلوبهم والمنافقين المندسّين في صفوف الأمة، فإنّ هذا كله مما كان يعسّر عملية إعدادهم لزعامة التجربة من الناحية الفكرية والثقافية بالرغم من عمق ولائهم، لأن الإسلام ليس نظرية بشرية لكي تتحدّد فكرياً من خلال الممارسة والتطبيق وإنما هو رسالة الله التي حدّدت فيها الأحكام والمفاهيم وزوّدت ربّانياً بكل التشريعات العامة التي تتطلّبها التجربة، ولابدّ لزعامة مثل هذه التجربة من استيعاب الرسالة بحدودها وتفاصيلها ووعي كامل لكل أحكامها ومفاهيمها، وإلا كانت مضطرّة إلى استلهام مسبقاتها الذهنيّة... ولأدّى ذلك إلى نكسة في مسيرة التجربة، وبخاصة إذا لاحظنا أن الإسلام كان هو الرسالة الخاتمة لرسالات السماء والتي كان يجب أن تمتد مع الزمن وتتعدّى كل الحدود الوقتية والأقليمية والقومية، الأمر الذي لا يسمح بأن تمارس زعامته ـ والتي تشكّل الأساس لكل ذلك الامتداد ـ تجارب الخطأ والصواب التي تتراكم فيها الأخطاء عبر فترة من الزمن حتى تهدّد التجربة بالسقوط والانهيار. راجع للتفصيل: نشأة التشيّع والشيعة: ص ٥١ ـ ٥٧.

٣٧. نشأة التشيّع والشيعة، ص: ٥٨ ـ ٦١. وهذه الحقيقة تؤكّد أن تاريخ الخلفاء لا يمثل تاريخ الإسلام والرسالة الإسلامية على الإطلاق، بالرغم من أن كتب السيرة والتاريخ حينما تؤرخ للإسلام تؤرخ له من خلال تاريخ الخلفاء والملوك الذين حكموا باسم الإسلام.

٣٨. طبعاً ينبغي أن لا نغفل عن النصوص الموضوعة على لسان الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله في المصادر غير الإمامية لدعم خط الخلافة والتي حاول واضعوها أن يقلّدوا فيها ما جاء عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في علي عليه‌السلام لئلا يتأخر الآخرون عنه في هذا المضمار حين طرحهم للبديل على لسان النبي نفسه. وإذا ما نوقشت تلك النصوص سنداً ودلالة وقورنت بما جاء في علي عليه‌السلام كانت النصوص الدالة على جدارة علي عليه‌السلام لمنصب القيادة الرسالية بلا منازع. على أن الجدارة الفكرية والروحية لعلي عليه‌السلام هي محل اعتراف الخلفاء أنفسهم والصحابة بشكل عام. راجع نصوص حديث «علي مع الحق والحق مع علي» في سنن الترمذي ٥: ٥٩٢، والمستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٩ ـ ١٣٥، وتاريخ بغداد: ١٤: ٣٢١ وغيرها.

٣٩. قال تعالى في سورة الكهف: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ...﴾ وقال في سورة النجم: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى﴾.

٤٠. وقال تعالى في سورة الطلاق: ﴿ومن يتقّ الله يجعل له مخرجاً...﴾ وقال الإمام عليه‌السلام في تفسيره: يجعل له مخرجاً من الفتن، وقال تعالى في سورة البقرة: واتقوا الله ويعلّمكم الله. وقال الإمام عليه‌السلام: إن المؤمن ينظر بنور الله، فكيف بمثل سيد المرسلين.

٤١. قال تعالى مشيراً إلى بعض هذه الأخطار في سورة آل عمران: ﴿وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾. وقد بيّن له الانقلاب الذي حصل في بني إسرائيل حينما غاب عنهم موسى عليه‌السلام ولأيام قلائل..←

فالصدمة التي تتركها رحلة الرسول القائد هي أمر طبيعي وله مضاعفاته من زعزعة سير التفكير وإيجاد الاضطراب الروحي والفكري لكثير من الناس العاطفيين.. لاسيّما والأمّة لم تصل إلى مستوى النضج الرسالي المطلوب ولا ننسى أن نضيف إلى كل ذلك التناقضات الكامنة في نفوس المسلمين على أساس الانقسام إلى مهاجرين وأنصار وإلى قريش وسائر العرب... فضلاً عن وجود قطاع متستر بالإسلام يكيد للإسلام والمسلمين ليل نهار والذي سماه القرآن بالمنافقين، هذا إلى جانب القطاع الكبير الذي أسلم بعد الفتح استسلاماً للأمر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقة. بالإضافة إلى مكائد أهل الكتاب وتربّص القوّتين العظيمتين ـ الروم والفرس ـ للدولة الإسلامية الفتية.. إذن لم تكن خطورة الموقف شيئاً يخفى على قائدٍ مارس العمل العقائدي فضلاً عن خاتم الأنبياء الذي يتنزل الأمر إليه من السماء. راجع نشأة التشيّع والشيعة، ص ٢١ ـ ٢٦.

٤٢. سورة المائدة، الآية: ٦٧.

٤٣. بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٤٩٠.

٤٤. راجع سنن الترمذي: ٥ / ٥٩٣ الحديث ٣٧١٧، وتاريخ بغداد: ٣ / ١٥٣ والاستيعاب: ٣ / ٤٦

٤٥. تحف العقول: ص ٣٥.

٤٦. طالع هذه المضاعفات في كتاب «أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف» للسيد الشهيد محمدباقرالصدر.

٤٧. راجع صحيح مسلم: ٤ / ١٨٧٤؛ ومختصر تاريخ دمشق: ١٨ / ٣٢.

٤٨. راجع الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٣٨١، والطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٢٤٩.

٤٩. راجع صحيح البخاري: ج ١، ص ٣٧ كتاب العلم و١٦١/٨ كتاب الاعتصام وصحيح مسلم: ٥: ٦٧ باب الوصّية.

٥٠. راجع نشأة التشيّع والشيعة: ٢٩ ـ ٣٠.

٥١. الفرق بين الطاقة الحرارية والوعي الرسالي: أن الوعي لا يتزعزع في لحظات الانفعال بل يبقى ثابتاً لا يلين ولا يتميّع، والوعي هو إيمان الإنسان بأهدافه ومسؤولياته فهو فوق كل الانفعالات والمشاكل والانتصارات. بينما الطاقة الحرارية ـ التي هي توهج عاطفي حار بشعور قد يبلغ في مظاهره نفس ما يبلغه الوعي ـ تأخذ بطبيعتها بالتناقص بالتدريج كلما ابتعد الإنسان عن مركز الطاقة الحرارية. راجع: أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف. المحاضرة رقم ٦ و ٧، ص ٧٧ ـ ٩٠.

٥٢. راجع نشأة التشيع والشيعة: ٩٤ ـ ٩٦ لتطّلع على شواهد هذه الدعوى.

٥٣. إن الأئمة عليهم‌السلام يعتبرون الحكم وسيلةً لتحقيق القيم الإسلامية العليا، ولهذا لا يرون ضرورة الوصول إلى الحكم بأية وسيلة كانت؛ فإن الله لا يطاع من حيث يعصى. ولهذا لم يعمل الإمام علي عليه‌السلام كما عمل عثمان حينما اشترط عليه أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين. إن المفارقة بين الإمام علي وسائر الخلفاء واضحة جداً في أهداف الحكم وأساليبه ووسائله، وهذا هو الذي ميّزه عليهم، فكان علي عليه‌السلام شهيد قيمه التي كانت إمامته من أجل صيانتها وإقرارها في المجتمع.

٥٤. راجع نشأة التشيع والشيعة: ٩٣ ـ ٩٦ لتطّلع على شواهد هذه الدعوى.